عناصر السكان في انطاكية
في العصر الهلنستي الروماني

بقلم جورج حداد

(خلاصة عن المقال المنشور باللغة الانكليزية)

كانت انطاكية منذ تأسيسها عن يد سلوقس في عام ٣٠٠ ق . م . من أشهر المدن التي بناها خلفاء الاسكندر في بلاد الشرق الأدنى وكانت تعرف باسم « انطاكية على العاصي » وأحياناً باسم « انطاكية قرب دفنة » لتمييزها عن المدن الأخرى باسم انطاكية والتي بلغ عددها ٢٢ مدينة حسب معجم بولي فيسوفا (Pauly Wissowa) الألماني للدراسات الكلاسيكية . وقد بلغ من عظمة انطاكية أن الأساطير المختلفة نُسجت حول مراحل بنائها وتوسعها ، وأعجب الكتاب الأقدمون بثروتها وجمال موقعها ؛ وخطبة ليبانيوس الأنطاكي في القرن الرابع م تصور لنا أبهة هذه المدينة وكذلك كتابات مؤرخي العرب وجغرافييهم فيما بعد . كانت انطاكية بعد تأسيسها عاصمة الدولة السلوقية التي عرف ملوكها باسم « ملوك سورية » وأحياناً « بملوك انطاكية » ثم في العهد الروماني أصبحت عاصمة الولاية الرومانية السورية ثم مركز الحكم الروماني في الشرق كله وقاعدة الرومان العسكرية في حروبهم ضد الفرس . وعدا ذلك فقد كانت تتمتع بالحكم الذاتي على طريقة المدن اليونانية بحيث كان يدير شؤونها حكام وقضاة من المواطنين يؤخذون بطريق الانتخاب . وثروة أنطاكية كان مصدرها الاساسي التجارة وحركة المواصلات حتى أصبحت كما قال أميانوس مرسلينوس « مدينة معروفة لدى العالم كله » . ومواعظ يوحنا الذهبي الفم تعطينا صورة رائعة عن الثروة والترف اللذين بلغتهما هذه المدينة . أما من الوجهة الفكرية والدينية فقد كانت مركزاً للحضارة الهلينية الوثنية بقدر ما كانت

فيما بعد مركزاً هاماً للنصرانية حتى سماها بعض مؤرخي العرب «كرسي النصرانية». وقد ذكر ليبانيوس خطيب انطاكية وفصيحها وأحد كبار المدافعين عن الثقافة الهيلينية «أن روائع الهلينيين كانت مشتركة بين أنطاكية وأثينا كما كانت شؤونهم سابقاً مشتركة بين أثينا وسبارطة» وقد رأى الامبراطور الروماني يوليانوس المعروف بالمرتد أن فخر انطاكية انما هو هيكل أبولون في ضاحية دفنة الجميلة، ومدرسة البلاغة. وكانت تعرف انطاكية بسبب ما ذكرنا بانطاكية العظمى، على أنها بعد عام ٥٢٨ أصبحت تعرف بمدينة الله. وذكر الكتاب من اليونان والسريان والعرب هذه الألقاب الرئيسية. وشهد معظم الكتاب المعاصرين أنها كانت ثالث مدينة في الامبراطورية الرومانية بعد رومة والاسكندرية، كما ان بروكوبيوس في القرن السادس يعتبرها المدينة الاولى في الامبراطورية الرومانية الشرقية. ومعظم الملوك والحكام كانوا يغدقون عليها النعم ويشيدون فيها المباني العامة.

هذه العوامل المختلفة من سياسية واقتصادية وثقافية ودينية جعلت انطاكية مدينة عالمية. وقد تهافت عليها الناس من كل صوب كما قال ليبانيوس، فلا عجب اذا كان امتزاج العناصر فيها من الامور التي تستلفت النظر. وقد شاعت الروايات التي أوردها ليبانيوس وملالاس Malalas أن تصور لنا وجود جماعة من اليونان في موقع أنطاكية قبل أن يؤسسها سلوقس في مطلع القرن الثالث ق. م فقد ذكر الاثنان في اسطورة ايو (Io) كيف أن جماعة من سكان مدينة آرغوس في اليونان أتوا للبحث عن ايو ابنة مليكهم وكيف أنهم استقروا في سفح جبل سلبيوس (المعروف اليوم بحبيب النجار) فأسسوا بلدة صغيرة سموها ايو بوليس Io polis. ثم كيف أن زعيما أتى من كريت بسبب الاضطهاد السياسي في جزيرته وتبعه جماعة من الكريتيين ثم من القبرصيين بسبب زواجه من ابنة ملك قبرص وسكن الجميع في موقع انطاكية. وعندما أتى الاسكندر بعد موقعة أسس في عام ٣٣٣ ق. م قيل إنه شرب من ينبوع عذب في نفس هذا الموقع ذكره بحليب أمه فأسس بلدة هناك وسماها بوتيا Bottia باسم أحد المواقع في مكدونية. كذلك يذكر المؤرخان اللذان يرويان هذه الأساطير جماعة من السكان الأصليين في موقع ايو بوليس والأغلب أنهم كانوا من الآراميين أو مزيجاً من عناصر سورية مختلفة.

والواقع الذي يثبته التاريخ أن سهل أنطاكية قد سكنه في الألف الأول جماعات من الآراميين والحثيين والأكراد. كما أن نتائج الحفريات الأثرية في رأس الشمرة والمينا التي علق عليها دوسو وشيفر من جهة وليونارد وولي وسدني سمث من جهة أخرى ترينا ان الاساطير التي رواها ليبانيوس وملالاس لها أساس تاريخي وأنه وجدت جماعات من بلاد اليونان وبلاد بحر ايجه عموماً على تلك السواحل الشمالية السورية منذ منتصف الألف الثاني وأثناء الألف الاول ق. م.

على انه يجب أن لا ننسى بأن هذه الأساطير نفسها تحاول أن تجعل انطاكية مدينة عريقة في القدم بحيث انه لم يؤسسها المكدونيون في عهد سلوقس وانما سبق واشترك في تأسيسها جماعات قبلهم . كذلك يريد ليبانيوس أن يربط نسب الانطاكيين بأعرق المدن والشعوب اليونانية . ويتضح من هذا أنه لما أسس سلوقس مدينة انطاكية بين جبل سلبيوس ونهر العاصي لجأ الى عملية ضم المدن الصغيرة المجاورة لموقع انطاكية وجمع سكانها في انطاكية (وهذه العملية تعرف باسم Synœcism) والامر الثابت تاريخياً أن قسماً من سكان انطاكية أتى به سلوقس من « انتيغونية » التي كان قد بناها القائد أنتيغونس في عام ٣٠٦ ق.م في شمال شرقي موقع انطاكية . وكان سكان انتيغونية المنقولون من المكدونيين والاثينيين . وهنالك مؤرخ عربي مجهول (ترك لنا نتفاً من تاريخه في مخطوط اليوم في الفاتيكان نشره العالم الايطالي غويدي) يذكر لنا عملية الانضمام هذه وتهديم المدن والقرى المحيطة بانطاكية ونقل سكانها اليها . ولا بد أنه عندما أسس سلوقس مدينة انطاكية لم يكتف باليونان والمكدونيين الذين سكنوا المواقع المجاورة أو الذين أتى بهم من بلاد اليونان بل دعا العناصر السورية المقيمة هناك وأسكنها في المدينة الجديدة بموجب الاسلوب الذي اتبعه الاسكندر حيث كان يُسكن الوطنيين من أبناء البلاد بجانب العناصر المكدونية اليونانية في المدن التي كان يؤسسها .

وقد عرفت انطاكية عند بعض الكتاب الأقدمين ومنهم سترابون بالمدينة الرباعية (Tetra polis) . فقد بنيت على أربع مراحل وفي كل مرة كان يبنى فيها حي كبير أو مدينه صغيرة . فالحي الأول بناه سلوقس ؛ ويقول سترابون ان الثاني بناه « مجموع السكان أو المستوطنين » ولا نعلم بالضبط ماذا قصد بذلك وقد يكون عنى بهم السوريين الذين اتوا من المناطق المجاورة . وكان بين السكان الأولين جماعة من اليهود ذكر يوسيفوس عنهم أنهم نالوا حق الموطن بينما يثبت الواقع أن يوسيفوس لم يفرق بين الامتيازات والحقوق الدينية وبين امتياز الحصول على حق المواطن كما انه يناقض نفسه في عبارات أخرى من مؤلفاته . واذا جمعنا نتائج ماذكره المؤرخون والكتاب عن أقدم سكان مدينة انطاكية يتضح ان أول من سكن هذه المدينة هم من جهة المحاربون القدماء وأغلبهم أتى بهم سلوقس من مراكز أخرى مثل بوتية وأنتيغونية ، ثم الاثينيون من أنتيغونية ، ثم — اذا صدقنا بعض ما أتت به الاساطير التي تؤيدها الى حد ما نتائج الابحاث الأثرية — جماعة من اليونان سكنوا المستعمرات اليونانية الاولى قرب موقع انطاكية وبينهم آرغوسيون وكريتيون وقبرصيون ، وأخيراً جماعة من السوريين المقيمين منذ أمد بعيد في منطقة وادي العاصي الأسفل .

وكانت مدينة انطاكية تزداد في مساحتها وعدد سكانها ويأتيها المهاجرون من بلاد اليونان في عصر ضاقت فيه احوال المعيشة بالسكان ووجدوا فرصاً مؤاتية في البلاد الجديدة. وقد عبر ليبانيوس عن هذه النزعة الى الهجرة عندما ذكر استقرار القادمين من بلاد اليونان وتأسيسهم موقع ايوبوليس قرب موقع انطاكية اذ قال «لانه كثيراً ما يجذب البلد الأحسن ميول الناس ويزيل ذكريات البلاد الاصلية». ويذكر سترابون وكذلك ليبانيوس مدينة او حياً ثالثاً في انطاكية ربما بدأه سلوقس الثاني واتمه انطيوخس الثالث في القرن الثاني ق.م. وسكنه جماعة من الايتوليين والكريتيين واليوبويين (نسبة الى جزيرة يوبوا أمام ساحل اليونان). وكان بعض هؤلاء جنوداً مرتزقة من اليونان حاربوا بجانب انطيوخس والثالث ضد الرومان فلما كُسر في موقعة مغنيزيا عام ١٨٩ ق.م ابتنى لهم الحي الجديد على الجزيرة في نهر العاصي. ويظهر أن فقدان آسية الصغرى بموجب معاهدة أفامية التي تبعت هذه المعركة جعل قدوم جماعات كبيرة من اليونان الى انطاكية وسائر المدن السورية صعباً، خاصة وقد منعت معاهدة افامية تجنيد المرتزقة من الأراضي الخاضعة للرومان. وعلى ذلك فقد انقطع سيل الجنود من العناصر اليونانية، ولكن اليونان ظلوا يفدون الى انطاكية بصورة افرادية في بعض المناسبات التي من جملتها الألعاب الاولمبية التي كانت تقام في انطاكية في العهد الروماني. على أن التمازج الهائل في القرن الاول من حياة انطاكية كان قد حصل، وكان كثيرون من الجنود قد سكنوا انطاكية وهم من عناصر مختلفة. وتكامل بناء انطاكية عندما ابتنى انطيوخس الرابع ايفانيس الحي الرابع. ومع ذلك فان المدينة تابعت توسعها في العهد الروماني حيث بنى اغريبا صهر اوغسطس ضاحية باسمه. وفي عهد ثيودوسيوس في القرن الرابع م بلغ من اتساع انطاكية ان المنازل اصبحت على بعد ميل خارج الاسوار حتى اضطر الامبراطور الى بناء اسوار تضم المنازل الجديدة.

واستمر تقاطر السكان الى انطاكية في العهد الروماني وبينهم جماعة من الرومان اتوا إما لاجل التجارة، ويشير اليهم يوليوس قيصر في كتابه عن الحروب الأهلية، أو كموظفين في مختلف المصالح الادارية الكبرى، أو كأصحاب اعمال وزائرين يفدون على المدينة عندما يسكنها الأباطرة بضعة ايام او شهور. وكان الجنود في الفرق الرومانية المقيمة حول انطاكية من عناصر متعددة كما في العهد السلوقي وكانوا يختلطون بالسكان ويتزاوجون معهم ولا يستبعد أن يكون كثيرون منهم قد سكنوا المدينة. وقسم كبير من السكان كان مصدره الهجرة الداخلية من المدن والقرى المجاورة وكانوا سوريين بين آراميين وعرب أتى بعضهم للتجارة وآخرون

طردهم البؤس والازمة الاقتصادية في مناطق الريف فحصل ذلك النزوح الى المدن الذي يشاهد في سائر جهات الامبراطورية الرومانية . ولا بد ان بعض الارمن سكنوا انطاكية في الفترة التي حكم فيها تغرانس (ديكوان) الارمني سورية في نهاية الحكم السلوقي . ويجب ان نضيف الى هذه الجماعات عدداً كبيراً من العبيد يقدر بنحو نصف السكان وقد اتوا من مصادر مختلفة والبراهين متوفرة على كثرة عددهم .

اما العنصر اليهودي فقد سكن انطاكية بنتيجة عوامل اقتصادية وسياسية . فقد اتى بعضهم في زمن اضطهاد انطيوخس الثالث في فلسطين وسكنوا دفنة . كما ان كثيرين من اسرى الحروب السلوقية والرومانية ضد اليهود كان يؤتى بهم الى انطاكية . وقد ازدهرت تجارة اليهود في هذه المدينة في اوائل العهد الروماني كما ان بعضهم كانوا يشتغلون في الزراعة .[٤] واهم الاماكن التي سكنوها دفنة حيث كان لهم معبد والقسم الغربي من انطاكية قرب باب دفنة[٤] . وكذلك سكنوا قرب الباب الشرقي ، كما ان جماعة منهم سكنت في السهل المعروف بالحولة (والمذكور في النصوص اليونانية باسم Oualatha) في شمال شرقي انطاكية . وكانوا يتمتعون بحرية دينية وقضائية اذ كانت لهم محكمة خاصة . ولكنهم على عكس ماذكر يوسيفوس ، لم يعتبروا مواطنين انطاكيين . وملوك السلوقيين واباطرة الرومان لم يتدخلوا بامتيازاتهم على انه من وقت الى آخر كانت تحصل الاصطدامات بينهم وبين سائر سكان انطاكية . وسلسلة مواعظ يوحنا الذهبي الفم ضد اليهود في القرن الرابع تثبت انهم كانوا لا يزالون عنصراً يحسب له حساب بين سكان انطاكية .

اما بشأن عدد سكان انطاكية فان خطبة ليبانيوس الحادية عشرة تصور المدينة وهي تعج بالناس في كل حي من أحيائها . والعهد السلوقي لم يترك لنا سوى شهادة واحدة غير مباشرة عن مقدار السكان وذلك أن كتاب المكابيين الاول يذكر ان الثائرين الذين اجتمعوا في وسط المدينة لقتل ديمتريوس الثاني كانوا مائة ألف نفس ؛ وفي ذلك مبالغة ، واذا صح هذا التقدير فان عدد النفوس كلها يجب أن يكون أضعاف هذا العدد الذي تمرد واحتشد في وسط المدينة ، إذ يجب أن نحسب أن الثائرين كانوا من الذكور وغالباً في سن الشباب . ويشير يوحنا فم الذهب الى انطاكية في القرن الأول وهو يتكلم عن أسقفها اغناطيوس فيذكر عظمة المدينة التي كان يرعاها ويقول إن سكانها مائتا ألف نفس . وقد فسر المؤرخون هذه الاشارة بشتى الاشكال فقال البعض ان يوحنا فم الذهب لم يقصد الا البالغين من الذكور وأنه لم يُدخل في هذا العدد النساء والاولاد كما أنه لم يدخل العبيد ، وقال آخرون انه لم يقصد سوى المواطنين الأنطاكيين . ولا نعلم اذا كان يوحنا فم الذهب الذي عاش في القرن الرابع يعتمد

على احصاء رسمي عن القرن الأول ، وفي هذه الحالة لا ندري اذا كان الاحصاء قد فرق بين المواطنين وغير المواطنين . وربما كان يوحنا يعطي رقماً تقديرياً وفي هذه الحالة لا نظن أنه كانت له مصلحة في التمييز بين المواطنين وغير المواطنين أو بين الذكور البالغين وبين النساء والأطفال لأنه أراد أن يظهر عظمة مسؤولية الأسقف الذي تكلم عنه وثقل العبء الذي يحمله . وعليه فان الرقم الذي يعطيه يشمل جميع السكان الاحرار واذا أضفنا مثلهم من العبيد يكون العدد في القرن الأول أقل من نصف مليون وهذا أقل من نفوس رومة والاسكندرية وسلوقية التي على الدجلة في ذلك الوقت .

وفي القرن الرابع يعطينا ليبانيوس معلومات عن عدد النفوس في عصره فيذكر أنهم مائة وخمسون ألفاً . وقد أثار ذكر هذا الرقم نفس التأويلات التي أثارها تقدير يوحنا فم الذهب عن نفوس أنطاكية في القرن الاول . على أننا نعتقد أن ليبانيوس في هذه الحالة مثل يوحنا في الحالة الاولى لم يقصد قسماً من السكان دون آخر ، إذ أنه كان يقول في رسالة الى أحد أصدقائه بعد أن أهين الامبراطور يوليانوس في انطاكية : « ان مائة وخمسين ألفاً من الناس لا ينتظر ان يكونوا كلهم صالحين » أو بكلام آخر « ان الصلاح لا يمكن أن ينتظر من سكان أنطاكية كلهم » هذا ما قصده ليبانيوس على ما نعتقد . ثم هناك اشارة الى عدد النفوس في القرن الرابع في احدى مواعظ يوحنا فم الذهب حين يذكر الذين يأتون الى الكنيسة فيقول « ان عدد الذين يجتمعون هنا يبلغ المائة الف . . » والأغلب أنه كان يعطي رقماً تقديرياً عن المسيحيين الذين ينتسبون الى الكنيسة وهي الكنيسة الأرثوذكسية الرسمية . فاذا أضفنا اليهم سائر المسيحيين من مختلف المذاهب وخاصة الآريوسيين بلغ عدد النصارى كلهم نحو مائة وخمسين ألفاً . واذا حسبنا أنهم يشكلون الاكثرية في ذلك العصر فيمكن اعتبار عدد الوثنيين واليهود غالباً نحو مائة الف وعلى هذا فيكون عدد السكان الاحرار جميعهم نحو ربع مليون وباضافة العبيد نصف مليون . ويشير المؤرخ ملالاس الى عدد الضحايا في زلزال عام ٥٢٦ في انطاكية فيقول انهم بلغوا ربع مليون نفس ، بينما بروكوبيوس يقدر الضحايا بثلاثمائة الف . وقد يجوز ان عدد الضحايا بلغ نصف سكان المدينة نظراً لما يذكره المؤرخون من هول هذا الزلزال وذهابه بالقسم الأعظم من انطاكية . فيكون العدد الكامل للسكان نحو نصف مليون . على أن اختلاف تقدير مؤرخين معاصرين للحادث حتى بلغ الفرق بين الرقمين خمسين الف نفس يجب ان يعطينا فكرة عن خطر الاعتماد على هذه التقديرات وان صدرت عن كتاب معاصرين .